

(قَالَ الْمَلِكُ اَنْتُوْنِي بِهِ اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ اِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِيْنٌ اَمِيْنٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلٰى خَزَائِنِ الْاَرْضِ اِنِّي حَفِيْظٌ عَلِيْمٌ (٥٥)) .
[يوسف : ٥٤ - ٥٥] .

(قَالَ الْمَلِكُ اَنْتُوْنِي بِهِ) وفي الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير: وبعد أن انكشفت للملك براءة يوسف ﷺ انكشافاً تاماً ، بسبب ما سمعه عنه من النسوة ومن امرأة العزيز، وبعد أن سمع تفسيره للرؤيا وأعجب به، كما أعجب بسمو نفسه وإبائه .. بعد كل ذلك قال الملك لخاصته: ائتوني بيوسف هذا .

• قال الرازي : اختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال : هو العزيز ، ومنهم من قال : بل هو الريان الذي هو الملك الأكبر ، وهذا هو الأظهر لوجهين :

الأول : أن قول يوسف (اجعلني على خزائن الأرض) يدل عليه .

الثاني : أن قوله (اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصاً له ، وقد كان يوسف ﷺ قبل ذلك خالصاً للعزيز ، فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الأكبر .

(اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) أي : أجعله من خاصتي وأهل مشورتي .

• قال الشوكاني : أجعله خالصاً لي دون غيري ، وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز ، والاستخلاص : طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة ، قال ذلك لما كان يوسف نفيساً ، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم .

• قال ابن عاشور : وقد دلّ الملك على استحقاق يوسف ﷺ تقريبه منه ما ظهر من حكمته وعلمه ، وصبره على تحمّل المشاق ، وحسن خلقه ، ونزاهته ، فكل ذلك أوجب اصطفاؤه .

(فَلَمَّا كَلَّمَهُ) أي : الملك .

فلما كلم الملك يوسف عليه السلام . واختاره ابن جرير .

• قال الشوكاني : قوله تعالى (فَلَمَّا كَلَّمَهُ) في الكلام حذف ، وتقديره فأتوه به ، فلما كلمه ، أي : فلما كلم الملك يوسف ، ويحتمل أن يكون المعنى : فلما كلم يوسف الملك ، قيل : والأول أولى ؛ لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم ، وقيل : الثاني أولى ؛ لقول الملك (قَالَ اِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِيْنٌ اَمِيْنٌ) .

(قَالَ اِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِيْنٌ اَمِيْنٌ) أي : أنت اليوم قريب المنزلة رفيع الرتبة ، مؤتمن على كل شيء .

ومَكِيْنٌ صفة مشبهة من الفعل مكن- بضم الكاف-، بمعنى صاحب مكانة ومرتبة عظيمة، يقال: مكن فلان مكانة إذا ارتفعت منزلته، ويقال: مكنت فلانا من هذا الشيء إذا جعلت له عليه سلطانا وقدرة.

أَمِيْنٌ بزنة فعيل بمعنى مفعول، أي: مأمون على ما نكلفك به، ومحل ثقتنا.

• قال ابن عطية : فلما جاءه وكلمه قال (إنك اليوم لدينا مكين أمين) فدل ذلك على أنه رأى من كلامه وحسن منطقته ما صدق به الخبر أو أرى عليه ، إذ المرء محبوب تحت لسانه ؛ ثم لما زاول الأعمال مشى القدمية حتى ولاه خطة العزيز .

• قال الجصاص : ... هَذَا الْمَلِكُ لَمَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالذَّرَايَةِ لَمْ يُرْعَهُ مِنْ يُوسُفَ مَنْظَرُهُ الرَّائِعِ الْبَهِيْحِ كَمَا رَاعَ التَّسَاءَ لِقَلَّةِ عُقُولِهِنَّ وَضَعْفِ أَخْلَامِهِنَّ ، وَأَنْتَهُنَّ إِنَّمَا نَظَرْنَ إِلَى ظَاهِرِ حُسْنِهِ وَجَمَالِهِ دُونَ عِلْمِهِ وَعَقْلِهِ وَأَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَعْبا بِذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ وَوَقَفَ عَلَى كَمَالِهِ بَيَانِهِ وَعِلْمِهِ قَالَ (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِيْنٌ اَمِيْنٌ) فَقَالَ يُوسُفُ (اجْعَلْنِي عَلٰى خَزَائِنِ الْاَرْضِ اِنِّي حَفِيْظٌ عَلِيْمٌ) فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ ، وَالْحَفِيْظِ .

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) أي : قال يوسف عليه السلام للملك: اجعلني - أيها الملك - المتصرف الأول في خزائن أرض مملكتك، المشتملة على ما يحتاج إليه الناس من أموال وأطعمة، لأني شديد الحفظ لما فيها، عليم بوجوده تصريفها فيما يفيد وينفع .

والخزائن جمع خزانة ، وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء ، والحفيظ : الذي يحفظ الشيء ، أي : (إِنِّي حَفِيظٌ) لما جعلته إليّ من حفظ الأموال لا أخرجها في غير مخرجها ، ولا أصرفها في غير مصارفها (عَلِيمٌ) بوجوده جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها.

• **قال الشوكاني :** طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ، ورفع الظلم ، ويتوسل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله ، وترك عبادة الأوثان.

• **قال صاحب الكشاف :** وصف يوسف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبه الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق، وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا .

• **وقال القرطبي :** ودلت الآية أيضاً على جواز أن يخاطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً .

فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سُمرة قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها) .
وقال صلى الله عليه وسلم (لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده) .

فالجواب : أولاً : أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولأها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن: "لا تسأل الإمارة" (وأيضاً) فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتنا وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام (وكل إليها) ومن أبأها لعلمه بآفاتنا، وخوفه من التقصير في حقوقها فرّ منها، ثم إن ابتلى بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله : (أعين عليها) .

ثم قال : ... الرابع : أنه رأى ذلك فرضاً متعيناً عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر . (التفسير) .

• **قال ابن العربي :** كيف سأل الإمارة وطلب الولاية، وقد قال صلى الله عليه وسلم (لا تسأل الإمارة ، وإنك إن سألتها وكلت إليها، وإن لم تسألها أعنت عليها) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (إننا لا نؤي على عملنا من أراده ؟) .
وعن ذلك أربعة أجوبة :

الأول : أنه لم يثقل : إني حسيب كريم ، وإن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) .

ولا قال : إني مليح جميل ، إنما قال : إني حفيظ عليم ، سألها بالحفظ والعلم لا بالحسب والجمال .

الثاني : سأل ذلك ليؤصل إلى الفقراء حطوظهم لا لحظ نفسه .

الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه ، فأزاد التعريف بنفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله (فلا تزكوا أنفسكم) .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ فَرَضًا مُتَعَيِّنًا عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ غَيْرُهُ .

• قال الخازن : فإن قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله إني حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم .

قلت : إنما يكره تزكية النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوسل به إلى غير ما يحل فهذا القدر المذموم في تزكية النفس . أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك ، مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فإنه يجب عليه أن يقول أنا عالم ، ولما كان المالك قد علم من يوسف أنه عالم بمصالح الدين ولم يعلم أنه عالم بمصالح الدنيا نبيه يوسف بقوله إني حفيظ عليم على أنه عالم بما يحتاج إليه في مصالح الدنيا أيضاً مع كمال علمه بمصالح الدين .

الفوائد :

١- أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه ، وأنه ليس من المحذور من تزكية النفس في قوله تعالى (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) .

٢- دلت الآية أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل .

قال الماوردي : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراعاة ، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعت الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظفر بأهله .

٣- بعد الابتلاء والثبات يأتي الفرج والتمكين .

٤- الأمانة والصدق من أسباب التمكين في الأرض .

٥- أول التمكين ابتلاء .

٦- فضل العلم وشرفه ، إذ به رفع الملك يوسف إلى حضرته وهو رفيع .

٧- تحقيق الكلمة القائلة : المرء مخبوء تحت لسانه .

٨- الوصف بالأمانة هو الأبلغ في الإكرام .

٩- التمكين في الأرض من ثمرات الإحسان .

١٠- قال القرطبي : قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر ، والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه ، فيصلح منه ما شاء ؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك .

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)) .

[يوسف : ٥٧] .

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) بيان لسنة الله تعالى في خلقه ، من كونه سبحانه لا يضيع أجر الصابرين المحسنين أي : ومثل هذا التمكين العظيم . مكنا ليوسف في أرض مصر ، بعد أن مكث في سجنها بضع سنين ، لا لذنب اقترفه ، وإنما لاستعصامه بأمر الله .

(يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) ومثل هذا التمكين العظيم ، مكنا ليوسف في أرض مصر ، حيث هيأنا له أن ينتقل في أماكنها

ومنازلها حيث يشاء له التنقل، دون أن يمنعه مانع من الحلول في أي مكان فيها.

• قال ابن جرير : يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار .

فالجملة الكريمة كناية عن قدرته على التصرف والتنقل في جميع أرض مصر، كما يتصرف ويتنقل الرجل في منزله الخاص.

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ) أي : نصيب برحمتنا وفضلنا وعطائنا من نشاء عطاءه من عبادنا بمقتضى حكمتنا ومشيتنا.

• فيه إثبات المشيئة لله، وليعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، أي: أنه ليست مشيئة الله مجردة هكذا

تأتي عفواً، لا، هي مشيئة مقرونة بالحكمة، والدليل على ذلك، قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

حَكِيمًا) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله، بيّن أن ذلك مبني عن علم وحكمة.

(وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) الذين يتقنون أداء ما كلفهم الله بأدائه، بل نوفيهم أجورهم على إحسانهم في الدنيا قبل الآخرة إذا

شئنا ذلك.

فالإحسان : إحسان في عبادة الخالق، إحسان إلى المخلوق.

في عبادة الله، إخلاصاً لله تعالى، ومتابعة للرسول ﷺ ، كما قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وقال

تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ).

فالإحسان في عبادة الله: أن تقوم بالعمل متقناً فيه إخلاصاً ومتابعة.

والإحسان إلى المخلوق: بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

فمن أعظم الإحسان الصبر في ذات الله : لصبره في الحب ، وفي الرق ، وفي البسج ، وصبره عن محارم الله عما دعت إليه المرأة.

(وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف ﷺ في الدار الآخرة أعظم وأكثر

وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان ﷺ (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ) .

• قال القرطبي : قوله تعالى (وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ) أي : ما نعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا ؛ لأن أجر

الآخرة دائم ، وأجر الدنيا ينقطع ؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متق .

في الدنيا موت وفي الآخرة لا موت - في الدنيا هموم وغموم وفي الآخرة لا هموم ولا غموم - في الدنيا نعيم منقطع وفي

الآخرة نعيم دائم .

وهكذا كافأ الله تعالى يوسف على صبره وتقواه وإحسانه، بما يستحقه من خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

الفوائد :

١- أن التقى الأمين لا يضيع سعيه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة .

٢- فضيلة الإحسان في كل شيء .

٣- أن ثواب الآخرة خير من ثواب الدنيا المنقطع .

٤- فضيلة الإيمان والتقوى .

٥- من كان محسناً في دنياه أصابته رحمة الله وثوابه في الدنيا كما يصيبانه في الآخرة .